قراءة في إبداع شاعرة الحداثة: من الإلحاد إلى الإيمان

د:محمد حمراس
med-48200@hotmail.com
المركز الجامعي أحمد زبانة –غليزان/الجزائر

تاريخ الإرسال :2019-05-12 تاريخ القبول: 2019-06-09 تاريخ النشر: 2019-07-01

الملخص :
اقتفى الفكر العربيّ آثار الفكر الغربيّ، وسار على خطاه، إذ معظم الذي حدث هناك، تردّد صداه هنا. من ذلك النزعة الإلحاديّة التي وسمت مساحة عريضة من النتاج الشعريّ الحداثيّ مثلما نجد عند شاعرة الحداثة العربيّة "نازك الملائكة" التي كانت ضحيّة قراءاتها منذ حداثة سنّها لفيلسوف ألمانيا "شوبنهاور Schopenhauer " المعروف بنظرته التشاؤميّة للحياة حيث كان متطرّفا في تشاؤمه بسبب فلسفته الإلحاديّة التي جعلته يحمل البغض للناس؛ يحذَرُهم ولا يطمئنّ إلى ما يصدر عنهم، قلق لا يثق في أحد مهما كان.
الكلمات المفتاحية: الحداثة ، التفاؤل ، التشاؤم ، الإلحاد ،الإيمان

Arab thought followed the effects of Western thought, and walked in his footsteps, as most of what happened there, echoed here. From the atheistic tendency that characterized a wide area of modern poetic output, as we find in the poet of Arab modernity, "Nazik the Angels", which has been the victim of reading since the age of the old German philosopher "Schopenhauer," known for his pessimistic view of life where he was extreme pessimism because of atheistic philosophy that made him carry Hate to people; warn them and do not reassure what is issued by them, a concern that does not trust anyone, no matter what.
Modernity, optimism, pessimism, atheism, faith

اقتفى الفكر العربيّ آثار الفكر الغربيّ، وسار على خطاه، إذ معظم الذي حدث هناك، تردّد صداه هنا. من ذلك النزعة الإلحاديّة التي وسمت مساحة عريضة من النتاج الشعريّ الحداثيّ مثلما نجد عند شاعرة الحداثة العربيّة "نازك الملائكة" التي كانت ضحيّة قراءاتها منذ حداثة سنّها لفيلسوف ألمانيا "شوبنهاور Schopenhauer " المعروف بنظرته التشاؤميّة للحياة حيث كان متطرّفا في تشاؤمه بسبب فلسفته الإلحاديّة التي جعلته يحمل البغض للناس؛ يحذَرُهم ولا يطمئنّ إلى ما يصدر عنهم، قلق لا يثق في أحد مهما كان. وهو ما أخذته منه "نازك الملائكة" وبدا ذلك ظاهرا في مطوّلتها "مأساة الحياة"، التي دامت معها قرابة عقد من الزمن، إلى أن استيقظت بعد قراءتها للقرآن أثناء تحضيرها لمحاضرة عن المرأة العربيّة بطلب من إدارة إحدى الجامعات الأمريكيّة، وبينما هي تبحث عن نصوص من القرآن تدعّم بها مقالها أسرها أسلوب القرآن وتغلغل في أعماقها فتحوّلت من شاعرة/باحثة يحرّكها الإلحاد إلى إنسانة/ شاعرة /استنار قلبها فإذا هو يرسل أنوار الإيمان إلى قرائها وإذا شعرها الجديد يتقاطر حبّا وأملا وحياة إيمانا بعد ما كان تيها وظلاما، وبخاصّة ديوانها "يغيّر ألوانه البحر". والمقال قراءة في مطوّلتها "مأساة

الحياة" حيث الإلحاد وما نتج عنه من خوف تعاسة، وفي ديوانها "يغيّر ألوانه البحر" حيث الإيمان وما نتج منه من حبّ وأمل.

مرحلة الإلحاد:

كان "شوبنهاور" يقف في الطرف الآخر من مواطنه "هيجل Hegel " الذي كان فكره يقوم على (المصالحة بين الدين والفلسفة، ويتجاوز بذلك تلك التناقضات أو سوء التفاهمات التاريخيّة التي حصلت بينهما)[1]. أمّا هو، فقد قامت فلسفته على أنّ الوجود عبارة عن المادّة المطلقة، وليس في الوجود سواها، ومن يعتقد غير ذلك فهو مخطئ، وما النتائج التي يصل إليها إلا أوهام النفس التي لا حقيقة لها خارجها، مسندا الخلق والوجود إلى المادّة، مبدلا الإيمان الإلهيّ، بقوّة المادّة، إذ الوجود-في رأيه-ليس بحاجة إلى إله، لأنّ العلم المادّيّ كافٍ بنفسه لتفسير كلّ ما يحيّر الإنسان، وكلّ ما يجري في الكون، وهو ليس في حاجة إلى وجود قوّة خارجة عنه لتفسّر له الوجود، الذي ما هو إلّا إرادة عمياء، ذات مطالب أهمّها بقاء الحياة في الأنواع دون اكتراث بالأفراد، وما العقل عنده إلّا أداة من أدوات الإرادة التي تريد أوّلاً، ثمّ تستخدم العقل ليجد لها في منطقه مبرّراته.

قرأت "نازك الملائكة" كتابات "شوبنهاور" وتسرّبت إليها عدوى الإلحاد والتشاؤم، فإذا حياتها ليل حالك لا قمرٌ فيه ولا نجوم، تمكّن منها الشكّ فهزمها طيلة سبع سنوات، من سنة 1948 حتى سنة 1955، شكّ فكريّ، وشكّ عقائديّ، لوّنا إنتاجها الأدبيّ باللون القاتم، وتراءت لها الحياة كالحة، كأنّها تضع على عينيها نظّارة سوداء. تقول في قصيدة "صراع" :

(أحبّ وأكره ..حبّي شقاء /أحبّ وأكره.. كرهي ألم / ففيم أعيش؟ سئمت البقاء)[2] .

الحبّ والكره عواطف طبيعية في الإنسان، عندما يحبّ المرء يحسّ بالسعادة، ويقبل على الحياة، فتتفتّح الدنيا أمام عينيه. ويكره فتنغلق دنياه، فلا يرى غير الانتقام، وإذا كان هذا مع الإنسان العاديّ فكيف يكون الأمر مع الفنّان المرهف، الذي إذا حبّ كان حبّه عنيفا- وإذا كره كان كرهه مدمّرا.

ترسم "نازك الملائكة" صورتين متداخلتين، لوحة للحبّ، وأخرى للكره، والعاطفة في اللوحتين متطرّفة: تطرّف في الحبّ، وتطرّف في الكره؛ في الحبّ نقرأ سورة الحبّ العميق، وفي الكره نقرأ سورة المقت الكبير، عندما تحبّ ففي قلبها جنون، وعندما تكره ففي قلبها لهيب، الروح-في حبّها-ينتابها إحساس غريب لم تألفه، يضيع فيه جمودها، والروح-في كرهها-منبع الاحتقار، أو هي مجسّدة لكلّ الاحتقار، فلا قيمة-عندها-للكون كلّه، بل هو الكون كلّه مجرّد أفق وضيع حقير. والحياة-في الحبّ-تلهب المشاعر، فهي حبّ دائم لا يتوقّف، أمّا في الكره فهي خفقان قلب الحقود، على عالم مغرق في الشرور. والجسم - في حالة الحبّ - كأنّه قلب خفوق لا يتوقّف، ويتحوّل الجسم- في حالة الكره- إلى نفس ثائرة لا تعرف الهدوء، ولا تعترف بأيّة قوّة حتّى وإن كانت صخورا.

قد يفهم القارئ لوحة الكره، إذ الكره: (إحساس بشريّ، سلبيّ، فعّال، وثابت، موجّه إلى ظواهر متعارضة مع حاجات الفرد ومعتقداته وقيمه)[3] ، فهو منبت الشرّ، وإذا تسلّل إلى المرء، أنبت في قلبه الحسد والانتقام، وغالبا ما يكون الكره مسبوقا بـ (سخط حادّ ناتج عن مسار غير مرغوب فيه للأحداث، أو تراكم منتظم للتأثيرات الأضعف لمصدر الخبرات الانفعاليّة السلبيّة)[4] ، فالذي يكره يبيح لنفسه كلّ شيء، ولا غرابة في أن يفرّخ الكره "سورة المقت الكبير"، ويرى " الكون أفقا وضيعا حقيرا"...فيكون – أخيرا - ألما.

غير أنّ الإشكال الذي يصعب فهمه هو لوحة الحبّ، هذه العاطفة الإنسانية النبيلة، هذا الموقف الانفعاليّ الايجابيّ، الذي يتحوّل إلى شقاء، "أحبّ وأكره ..حبّي شقاء"، ولن يكون الحبّ شقاء إلاّ إذا اسودّت الدنيا

في عيني صاحبه، وأبصرها بالمنظار القاتم. فيصير الحبّ ساعتها شقاء، والكره وقتها ألما، وبين الشقاء والألم يتربّى السأم، ويتمنى المرء الرحيل راغبا في "صمت العدم" قبل الأوان.

يستمرّ الألم، وتتمكّن الحيرة، وتتعمّق المأساة، وفي أدغال النفس التائهة، وَسَط شهيق النفس، والدموع الملتهبة، يرتفع الصراخ سائلا، باحثا عن النفس.

وأبكي.. وأبكي.. فدمعي لهيب   يحطّم روحي ويذوي المنى

تعذّبني حيـــرتي في الوجـود   وأصرخ من ألمي: من أنا[5]

المألوف أن يسأل الإنسان غيره فيقول: من أنت؟ لأن السائل جاهل للمسؤول/ الآخر، أمّا أن يسأل المرء قائلا من أنا؟ فإنّما هو سؤال من يجهل نفسه، وأنّى يجهل الإنسان نفسه؟ لم تكن الظروف-التي فرضت على الشاعرة سؤالها عن حقيقتها-عاديّة، لم يأت السؤال بعد لحظة من لحظات التأمل الفلسفي أو التفكير المنطقيّ للوصول إلى حقيقة النفس، كان السؤال "من أنا" نتيجة حتميّة لعذاب الحيرة التي ولّدت صراخ الألم، فالشاعرة حَيْرَى، لم تهتدِ لسبيلها، فهي تائهة لم تستطع اتّخاذ القرار الذي يريحها، فالحيرة عجز يولّد العذاب.

من أنا؟ سؤال طرحته الشاعرة، وهل "أنا" المقصود بها "نازك" الشاعرة، أم "أنا" المعادل الموضوعي للشاعر الإنسان الحائر؟ جاء السؤال بعد عذاب الحيرة وصراخ الألم؛ وصراخ الألم إنما هو محاولة لتسكين هذا الألم، أو محاولة تخفيفه على الأقلّ، فهل الصراخ محاولة إخراج الألم، بحثا عن الشفاء، أم هو مجرّد تعبير لتغلغله داخل النفس، قد يكون الصراخ بالسؤال "من أنا" محاولة للبحث عن النفس التائهة الحيرى، للوصول إلى اليقين الذي لن تصل إليه، لأنّها أضاعت إيمانها، ومن ضيّع إيمانه فقد ضيّع أمنه وسلامه، وضاعت منه حياته. ثمّ متى يشرع الإنسان في البحث عن نفسه؟ لا يبدأ البحث إلا بعد الفقد، ولا شيء يؤلم كفقدان النفس، حيث يتيه الإنسان، ويضيع وسط زحام الشك، إنّ السؤال "من أنا"، بحث عن حقيقة ما تريده النفس، هو بحث عن الإيمان الضائع، واليقين الغائب، هو محاولةٌ للخروج من ذاك النفق المظلم الذي فرضه ضياع الإيمان، وإذا ضاع الإيمان فلا أمان، ولا دنيا لمن لم يحي دينه[6]. "من أنا" سؤالُ التائهِ المضيّع لنفسه، وهو يعكس التيه الذي تعيشه الشاعرة بعد قراءاتها للفلسفة الملحدة، بل هو سؤال كلّ تائه فقد طريقه، سؤال من قَبِل أن يحيا بلا دين، ومن رضي الحياة بغير دين فقد جعل الفناء له قرينا[7]ولن يكون هذا الشخص إلا روحا محطّمة، وأملا ذابلا، تمرّ عليه الأيّام وهو في حيرة قاتلة، ودموع محرقة.

إنّ السؤال "من أنا" بحث عن "نازك" الضائعة، التي جرفتها سيول الشكّ، وهو في الوقت نفسه، معادل موضوعيّ لكلّ نفس فقدت إيمانها ويقينها في خالقها، تهاجمها الأفكار التي لا تستطيع مجابهتها.

كانت "نازك" وقتذاك، غارقة في أفكار "شوبنهاور" القاتمة، التي تحمل أسئلته عن الموت: (لماذا نرفع الستار عن حياة جديدة كلّما أسدل على هزيمة وموت، لست أدري لماذا نخدع أنفسنا بهذه الزوبعة التي تثور حول لا شيء؟ حتّام نصبر على هذا الألم الذي لا ينتهي؟ متى نتذرّع بالشجاعة الكافيّة ونعترف بأنّ حبّ الحياة أكذوبة وأنّ أعظم نعيم للناس جميعا هو الموت)[8]يتعجّب فيلسوف ألمانيا ومعه-طبعا-"نازك" من نهوض الفرد بعد السقوط، ومن بحثه عن النجاح بعد الفشل والهزيمة، ومن خوفه من الموت، ذلك أنّ الحياة عنده ما هي إلاّ لا شيء، مجرد آلام معذّبة غير منتهيّة، وما حبّها إلا أكذوبة اخترعها المتفائلون ليتلذّذوا بآلام الآخرين. والموت، وحده دون غيره، الحقيقة الوحيدة التي يجب أن يقبل بها الإنسان، والنعيم الحقيقيّ الذي يجب أن يتعايش معه، لأنّ به يخلد صاحبه في أعظم نعيم.

قد تكون فكرة عدم الخوف من الموت فكرة مقبولة، لأنّه مصير كلّ حيّ، كما أنّ فكرة القبول بالموت لا تنافي القبول بالحياة، والإنسان الطبيعي هو الدي يقبل بالحياة، ولا يعدّها شرّا كما يفعل الملحدون، بل هي عنده استعداد، من دون أن يهاب الموت، لأنّه مؤمن بحياة أخرى بعد الموت، ولذلك هو يدعو قائلا: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[9]

لم تكتف "عاشقة الليل" بتشاؤم "شوبنهاور"، الذي عدّ الموت أعظم نعيم للناس، لأنّه يختم عذابات الإنسان في دنيا تتقاطر تعاسة وخوفا، ولكنّها تجاوزته إلى تشاؤم آخر أحلك من تشاؤمه، فهي بالإضافة إلى عدّ الحياة أكذوبة، مليئة بالشرور، كانت تخشى من الموت، وتعدّها أقسى كارثة على الإطلاق، والموت عندها مأساة الحياة الكبرى.

ففيم أمرّغ تحت الضياء / فؤادا سيرقد تحت الظلَم[10]

خافت "نازك" من الحياة كما خاف من قبلها "شوبنهاور"، وإذا عدّ هو الموت راحة للإنسان من كثرة الأحزان والمآسي، فقد زادت عليه أنّها عدّت الموت كارثة كبرى، فلا الحياة كانت راحة لها، ولا الموت نهاية لأحزانها، ممّا يدلّ على التشتّت النفسيّ الذي كانت تتمرّغ فيه. وها هي تختم القصيدة بهذا الصرع الداخليّ الذي تصفه بالرهيب والذي حرمها الطمأنينة التي طالما بحثت عنها في غير ذكر الله، ولن تجدها عند غيره:

أحــبّ وأكره، ماذا أحبّ   وأكـره؟ أيّ شعـور عجيب؟

وأبكي وأضحك، ماذا ترى   يثير بكائي وضحكي الغريب؟

أريد وأنفر، أيّ جنـون   حياتـي؟ أيّ صـــراع رهيب؟

لماذا أغني، لماذا أعيش؟   ومـن ذا أصارعه، من يجيب؟[11]

لوحةٌ ألوانُها مضطربة متضاربة، قائمة على أسئلة لا جواب لها، تثبت الأشياء ثم سرعان ما تنفيها بالسؤال، فهي كبقيّة الناس تحبّ وتكره، تبكي وتضحك، تريد وتنفر، وهي عواطف طبيعيّة في الإنسان، ولكنّ هذا التأكيد ينفيه تساؤلها وحيرتها، وعدم قدرتها على معرفة ما تحبّ وتكره، وما أسباب بكائها وضحكها، وأكثر من ذلك انّها في الوقت الذي تريد فيه الشيء، تنفر منه. ممّا يدّل على اضطرابها وعدم تحكّمها في عواطفها بسبب فقدان ثقتها في الحياة.

تصرفّاتها هذه ليست خارجة عن وعيها، فهي مدركة لهذه التناقضات بداخلها، فهي تسم قصيدتها بالصراع، كما أنّها تصف شعورها بالعجيب، وبكاءها وضحكها بالغرابة، بل تصف ذلك بأنّه جنون في حياتها، ممّا يدلّ على أنّها تدرك الصراع الذي تعيشه.

تمكّن اليأس منها، فلا تجد سببا مقنعا لغنائها وحياتها، فلماذا تغنّي والحياة مصيرها الموت، ولماذا تعيش ومصير جسدها هوّة اللحد العميق، فهي أبدا لا تملك إجابة مقنعة على أسئلتها المحيّرة، لتريحها من عذابها النفسيّ والوجوديّ.

تشاؤم "نازك" مستمرّ لا يكاد يختفي حتى يظهر بقوّة غير معهودة، كأنّه الفنيق الذي لا يكاد يحترق حتى يبعث من جديد، فها هي في قصيدة "أنا" تسأل الليل، والقرون، والريح، والدهر، والذات، عمّن تكون فيجيب الليل بكلّ قوّة:

أنا سرّة القلق العميق الأسود /أنا صمته المتمرّد/قنّعت كنهي بالسكون

ولففت قلبي بالظنون[12].

وسط كلّ هذا التشاؤم، عاش بداخلها هتاف الإيمان، وإن ظلّ خافتا، لا تكاد تسمعه وسط ضجيج الإلحاد وصراخاته، غير أنّه شقّ، في هدوء، طريقه إلى الظهور، فها هي تضع قصيدة موسومة "بين يدي الله" تحترق عذابا وألما:

فَلْنَلُذْ بالإيمان فهو خِتام الـيأس والدمع والشقاء العاتي

يمسح الأعين الحزينة من أدمعـها الهامرات في الظلمات

لن تنال الآهات منّي بعد الآن حتّى إن عشت فوق اللهيب

فوراء الحياة معـــنى عميقٌ ليس تفنيه سورة الأحزان

هو معنى الألوهة الخالـد المرجوّ خلف الوجود والأزمـان[13]

رتّبت هذه القصيدة في آخر مطوّلتها "مأساة الحياة"، لا تأتي بعدها سوى قصيدة "الرحيل"، التي تريد به رحيل الإنسان إلى الدار الأخرى، حيث (تبلغ السفينة، يا شاعرة الحزن، شطّها الأبديّ، شاطئ الموت، شاطئ الوحي والأسرار، ذاك المحجّب المخفيّا)[14].

يمكن أن نستخلص أنّ قصيدة "بين يدي الله"، وقد كتبت سنة 1946، وهو التاريخ الذي توقّفت فيه عن كتابة هذه المطوّلة، الذي يبلغ عدد أبياتها مئتان وألف. وهي - قصيدة "بين يدي الله" مليئة بالنسمات الإيمانيّة حيث تلجأ فيها إلى الله، من خلال السماء التي ترمز إلى القوّة العاليّة، القادرة على إفناء الشقاء، وإسعاد المعذّبين، وإشباع الجياع، وبرء الأحزان والأوجاع، لأنّ الله، كما ترى، نبع الحياة والخير والفنّ.

في غياب الإيمان، سيطر اليأس والتشاؤم عليها. ومع أنّها تربّت تربية إيمانيّة، لامست عواطفها وهي صغيرة، إلا أنّ هذا النور الخافت بداخلها لم يكن قادرا على مواجهة تسرّب الشكّ إلى قلبها وتفكيرها، إذِ المرء إذا ما تعرّض لتأثّرات أخرى تشكّك له فيما كان يؤمن به من غير فهم ودراسة، فإنّه سيسقط فريسة سهلة لأفكاره الجديدة، ولذلك ما إن قرأت "الملائكة" فلسفة "شوبنهاور" حتّى ضلّت طريقها، فضيّعت إيمانها الوراثيّ، وفقدت نفسها.

في وجود اليأس، والنظرة السوداء للحياة، تنعدم الراحة النفسية، ويعشّش الإلحاد في فكر هذا اليائس المتشائم. إذ غالبا ما يكون الإنسان ضحيّة ما يقرأ، ومعظم الذين قرأوا لفلاسفة الإلحاد وهم في مقتبل العمر-العمر الذي لا يحسن القارئ فيه التمييز بين جوهر الأشياء-قد تأثّروا بهذه القراءات وبدا لهم-وقتها- أنّهم قد وجدوا ضالّتهم، وأنّهم سبقوا أبناء عصرهم في معرفة الجديد الذي لم يصل إليه غيرهم، قد فقدوا إيمانهم، والنتيجة الحتميّة: تخبّط في وحل القلق، وظلمات اليأس، وانحدار الحيرة، فلا يجد الواحد منهم لقلبه سكنا وطمأنينة، ولا لباله راحة، ولا لتفكيره يقينا، إذ كلّ شيء لديه فزع، وكلّ ما يلقاه وهم. مثل ما حدث لمصطفي محمود، وكذلك صلاح عبد الصبور وغيرهما كثير.

ولكنّ الإيمان الذي تربّت عليه لم يُمحَ من قلبها، فظلّ متخفّيا في أعماقها، وإن ادّعت أنّها غير متديّنة، فما إن قرأت سورا من القرآن حتّى شدّها جماله وبلاغته وإعجازه. ولطالما غيّر القرآن الذي يلامس القلوب عقائد الناس .

ظلّ الإيمان بداخلها يصدر أصواتا خفيّة لم تسمع وسط ضجيج الإلحاد التي أقنعت نفسها به، ولذلك لم تتوقّف عن الأسئلة الناجمة عن الشكّ وعدم اليقين، "أبدا أسأل الليالي عن الموت، وماذا تُرَى يكون

المصير" لا سرّ لهذا الخوف من الموت المجهول لديها، إلا ذلك الإيمان الخفيّ الذي يصرخ بداخلها بصوت غير مسموع. وعلى حدّ تعبير صلاح عبد الصبور إن الحديث عن الموت بداية التفكير في الدين.

في سنة 1950 شدّت "نازك" الرحال إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة، وكانت وقتها متسربلة بالإلحاد، رفضت مشورة أمّها أن تحمل معها مصحفا ولو على سبيل التبرّك، إذ كيف لها أن تذهب إلى أمريكا، وهي القارئة للأدب الغربيّ، المطّلعة على فلسفة شوبنهاور المتحرّرة المتنوّرة، أن تحمل معها فكرا "ظلاميّا" يؤمن بوجود إله مهيمن على الكون! فكر يرى أنّ فكرة الإله الخالق، إنّما هي أسطورة ابتدعها فكرٌ متخلّف رجعيّ! وتظنّ أنّ ما يسمّى القرآن، إنّما هو من إنشاء رجل يسمّى محمد - (صلّى الله عليه وسلّم) - ليس إلا.

عندما تقذف شعلة الإيمان في القلب لا دوام للوهم، فقد يهدي الله من يشاء، ويقذف في القلب النور، فإذا هو ينبض حياة، ويتلألأ إيمانا وتصديقا، بعدما كان منطفئا كفرا وإلحادا.

في سنة 1954 دعتها إحدى الجمعيّات النسائيّة الأمريكيّة إلى إلقاء بحث عن المرأة في البلاد العربيّة، وكانت لا تكاد تعرف من القرآن إلاّ ما درسته في المدرسة، ألجأها هذا البحث إلى القرآن، فراحت تبحث فيه عن الآيات المتعلّقة بالمرأة، وما كادت تراجع مكتبة الجامعة في "وِسْكُونسِن" التي كانت تدرس بها، حتى عثرت على رفّ كامل من نسخ القرآن، فانكبّت "الملحدة" على قراءة الآيات القرآنية، فإذا هي تبهرُها بلاغتُها، ويأسرها إعجازُها، وبدا لها أنّ ما قرأته، أكبر من أن ينشئه بشر مهما أوتي من بلاغة وبيان، إذ تبلغ من الجمال والتعبيريّة، مبلغا لا يمكن لبشر أن يصل إليه. وفي اللحظة نفسها لامسها نور الإيمان، وثبت لديها أنّ فكرتها السابقة التي زعمت فيها أن القرآن من إنشاء بشر زعم باطل، وأنّ هذا القرآن لا يكون إلا من خالق الكون والجمال لما وجدت فيه من حلاوة أحسّتها بقلبها، وطلاوة لم تجدها في قراءاتها للنتاج البشريّ.

جعلها القرآن - الذي كانت تسخر كثيرا من أمّها عندما كانت تقرأه - تعيد النظر في أفكارها السابقة، وظلّت مدّة ثلاث سنوات تفكّر وتتأمّل حتّى أسرها الإيمان، وملك عليها قلبها وعقلها، فوقفت لأوّل مرّة في حياتها تناجي ربّها في أداء الصلاة سنة 1957، فقد غيّر القرآن تفكيرها ثمّ حياتها، فحوّلها من حال الإلحاد والحزن والكآبة والتشاؤم، إلى حال التوكّل والإيمان، والسعادة والاطمئنان.

وكما أسرت بلاغة القرآن وإعجازه قلوب كثير من الذين كانوا يحاربونه، أبرزهم الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه والذي ذهب ليقتصّ من أخته فاطمة الصابئة التي مرّغت شرف العائلة في الوحل، فما إن سمع آيات من سورة "طه" حتّى اهتزّ قلبه، وارتعشت فرائصه، وسكنت عاطفته وتحوّل الكافرُ الشرسُ الرافضُ الإسلامَ، والمقارعُ أتباعَه، ذو القلب الصخريّ، الحاملُ الكرهَ لله ورسوله، إلى قلب خاشع مطمئنّ يحمل كلّ الحبّ لله ورسوله، مدافع عنهما، ومحام للضعفاء الذين نالوا منه الويلات، فها هو الآن يرى بنور الله، ويسير على هدي رسول الله .كذلك أسرت الآيات القرآنية قلب "نازك الملائكة" فأنقذتها من حياة التيه والظلام إلى حياة الهدى والإيمان الذي أنار لها طريق الأمان.

في ديوانها "يغيّر ألوانه البحر"، الذي أرّخت قصائده في عام 1974، تظهر الشخصيّة الثانيّة لـ "نازك الملائكة" فإذا هي شخصيّة مؤمنة، قد خلّفت التشاؤم واليأس وراءها، وأقبلت على الحياة تشرب من خلجانها فها هي تقول في قصيدة "ويبقى لنا البحر":

نَعَم ويغيّر ألوانه /فيشرب صفرة شكّي وظنّي / ويصبح أزرق في لون لحني.

وتبحر في شذر أمواجه أغنياتي وسفني/ ويصبح أبيض، وتصبح لجّته ياسمينة .

مفردات يفوح عطر الإيمان والتفاؤل من نغمات ألفاظها، ومعلوم أنّ الضمير الغائب في كلمات المقطوعة (يغيّر ألوانه، فيشرب ويصبح، لجتّه) يدلّ على البحر، وفي البحر رمت كلّ إلحادها، فشرب صفرة شكوكها وظنونها ليتحوّل إلى بياض ناصع تحمل أمواجه الياسمين[15].

لا شكّ أنّ للبحر دلالات كثيرة منها الإشارة إلى المجهول، والسعة والظلمة، وقد يدلّ -عند الصوفيّة- على الكرم وغزارة العلم والعطاء، وقد يقرّب البعيد، أو يبعد القريب...ولعلّ المقصود بالبحر في القصيدة السعة والعمق حيث ترمي فيه أحزانها وآلامها، كما قد يكون البحر الذي رمت فيه شكوكها وتشاؤمها ليس إلا إيمانها الصادق العميق الذي غمرها باليقين فإذا هو أبيضُ ناصعٌ يحمل أزهارا تفوح بعبق الياسمين.

وتظهر نسمات الإيمان في قصائد هذا الديوان كما في قصيدة "الماء والبارود" حيث تقول:

الله أكبر/ الله أكبر/ هتافة الآذان في سيناء تبحر/ من موجها تسيل في الصحراء أنهر/

الله أكبر/ نداء رحمة ندٍ تشربه الرمال/ مدّ جناحيه، ارتمى في حضن التلال/

محمولة أنغامه على شراع أبيض مروره معطّر[16]

تكبّر الشاعرة مرّتين وكأنّها تؤذّن للصلاة، إنّه تكبير الجنود في سيناء، في رمضان/أكتوبر من عام 1973 النابع من إيمانهم الذي فجّر الصحراء القاحلة جداول مائيّة أروَت عطشهم بعدما رفعوا أكفّ الدعاء تضرّعا. تكبير الجنودِ شعارُ عقيدتِهم، هو توحيد وخضوع، بل توكّل ورجاء، أمّا تكبيرها فهو مشاعر تربطها بأبناء عقيدتها في سيناء، في حربهم ضدّ اليهود. تكبيرها تسبيحةُ عودتِها إلى "الحياة"، والنتيجة استجابة الله للذين يكبّرونه طالبين عونه، الصائمين له، ولا يجدون ماء مع الآذان يفطرون به. "هتافة الآذان" تبحر، لتحمل معها ماء الحياة والنصر إلى جنود الصحراء القاحلة لتفجّر لهم فيها أنهر، فيشربوا ماء زلالا.

تربط الشاعرة بين مشهدين، مشهد الجنود الصائمين في الصحراء القاحلة، ومشهد "أمّ إسماعيل" وقد تركها زوجها "إبراهيم" عليه السلام في أرض مكّة المقفرة، فلا ماء ولا زاد، وها هي هاجر وحدها تصارع الجوع والعطش، تصارع الموت ليعيش ابنها الرضيع الجائع العطشان:

(ينهض في جانبه العطشان بيت الله / وخيمة صغيرة لهاجر .. وليس من حياه

لا ظلل ندية، لا مهد أعشاب، ولا مياه / وصوتها يهتف: إبراهيم!

لأين تمضي مسرعا، لأين إبراهيم! / وفيم قد تركتنا في قلب رمضاء هنا نهيم!

لا حب، لا شفاء / تمنحنا أغنية، تبارك ابتهالنا في خشعة الصلاة

وحولنا واد سحيق مقفر ضيعنا مداه / وليس من شاو هنا فما الذي سننحر؟

وليس من شجيرة تظلنا وتثمر / وليس من سحابة تمنحنا رشاشها وتمطر

ويهتف الصوت الحزين / أين تركتنا، وفيم إبراهيم؟

ويختفي خلف التلال شخص إبراهيم /وهاجر باكية والطفل إسماعيل فوق صدرها يتيم)[17].

إن مشهد الجنود في سيناء يقاتلون العدوّ بلا ماء، يذكّر بمشهد أمّ إسماعيل، وهي تسعى بين الصفا والمروة باحثة عن الماء، حيث الرمضاء الحارقة، لا أحد معها غير هذا الرضيع الجائع العطشان الذي

كان بكاؤه سهاما تغرز في جسدها بل في قلبها، وهي تسائل زوجها الذاهب الذي لا يجيب، الذي تركها وابنها بلا حياه، بلا ظلال ندية، ولا مهد أعشاب، ولا مياه. لا حبّ، ولا شفاء، وليس من شاو، وليس من شجيرة تظلّل وتثمر، وليس من سحابة تمنح رشاشها وتمطر.

مشهد الأمّ هناك، قلبها الحزين على رضيعها، تصارع الموت من أجله، تستغيث الحجر والرمل، تبحث عن كلّ شيء، وعن لا شيء، حفاظا على ولدها، ومشهد الأرض المسلوبة هنا، أبناؤها هم من يدافعون عنها، وهم وإن كانوا لا يخشون العدوّ البشريّ، فإنّهم غير قادرين على مجابهة الأصوات المنبعثة من داخلهم الباحثة عن الماء بعد آذان الإفطار، وسط العدو البيئيّ المتمثّل في الصحراء، وكيف لهم أن يصمدوا في هذه الصحراء التي لا ترحم من لا ماء معه.

ما يجمع بين الموقفين هو الصراع من أجل البقاء، لأنّ المفقود في المشهدين واحد هو الماء، الذي بدونه لا حياة للإنسان مهما بلغ من قوّة. والموجود في المشهدين واحد هو الثقة في الله.

المعركة في المشهدين واحدة، أرض قاحلة، الماء فيها معدوم، وأشخاص عطشى، غير أنّ قلوبهم عامرة بالإيمان، يدركون أن الله لا يضيّعهم، فـ "هاجر" السائلةُ زوجَها قد أدركت أنّ "إبراهيم" إنّما يطبّق أمر الله، ولذلك هي ملآى بالأمل بأنّ الله لا يضيّع عباده، والجنود في سيناء المؤمنون بالله، يرفعون أكفّ الدعاء إلى الله، لأنّهم مقتنعون أنّه لا يضيّعهم.

تتخيّل الشاعرة حالة الجنود بعد أذان الإفطار، إنّ الصبر الذي كان يحرّكهم قبل الأذان، يدفعهم بعده، للبحث عن الماء عند الإفطار، ولكن أين هذا الماء، فلا يجدون وسيلة للحصول عليه إلا الدعاء:

(رباه فجّر بين أيدينا عيون الماء

هات: اسقنا يا ربّ من لدنك كأس رحمة مطهرة/ يا واعد المؤمن بالصحو وبالظل النديّ الظليل / هات اسقنا كما سقيت الطفل إسماعيل / كما رويت أمّه الوالهة المنكسرة/

بعد هيام ضائع طويل / في مدن العويل..)[18]

الشاعرة التي ما كانت لتهتمّ بالدعاء لولا أنها امتلأت إيمانا، المؤمن وحده من يعتقد أن الدعاء وسيلته الوحيدة عندما تحاصره الخطوب، لأنّ الدعاء عنده عبادة، به يثبت أنّه عاجز، وبه يتأكّد اعتماده على الله، وأنّه في حاجة إلى من هو أكبر من أيّ إنسان ليحقّق له ما عجز هو عنه. تنادي الشاعرة على لسان الجنود "ربّـــــــاه"، وهنا يتم الاندماج بين الشاعرة والجنود، في هذا الاتصال مع الله، أنّهم يستغيثون ربّهم - وهي معهم - كما استغاثه المؤمنون من قبل، يمتزج النداءان؛ نداء الشاعرة ونداء الجنود، في هذه الأيقونة الإيمانيّة "ربّاه" لتتضرّع هي معهم إلى الله، فقد تكرّر النداء في القصيدة بـ "ربّاه" مرّتين وبـ "يا ربّ" أربع مرّات، وبـ "يا واعد المؤمن" مرّة واحدة، ففي ندائها على لسان شخصيّات القصيدة، إنّما نداؤها هي، حيث تبحث، من خلاله، عن الهدوء والسكينة، لتؤكّد إقرارها لإيمانها وخضوعها لهاديها، واستغاثتها لربّها (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ)[19] ، إنّها- وَهُمْ - في أمسّ الحاجة إلى الماء، غير أنّ ماءها من أجل السكينة والطمأنينة، وماءهم من أجل استمرار الحياة، وهي-معهم-تعرف أنّه قادر على ذلك، فقد فجّر الأرض عيونا لأمّ إسماعيل وبعث في قلبها الهدوء والسكون، وكذلك تريد.

يتشابه مشهد هاجر بمشهد الجنود: "هات اسقنا كما سقيت الطفل إسماعيل"، مشهد "هاجر" بعد ترك زوجها لها، وهي تجري في الصحراء باحثة عمّن يعطيها الماء لهذا الذي يصيح من شدّة العطش والجوع، وبين مشهد الجنود، وهم يستغيثون الله أن يفجّر لهم الأرض ينابيع، بعدما انتهى الماء الذي معهم :

(جرارنا عطشى وتمتدّ حوالي جدبنا الصحراء / شفاهنا من عطش سيناء

ولا سحاب، لا دموع، ربّ في السماء /

ويركع الجنود مصروعين في ضباب الإغماء

عيونهم تَحرُّق يستعر/ رجاؤهم يحتضر / على الرمال يضمر/ ويضمر/ ويضمر)[20]

مشهد يصوّر حالة الجنود الصائمين، إنّهم صابرون على الماء لأنّهم صائمون، يستمدّون قوّتهم وصبرهم من إيمانهم، غير أنّ أذان الإفطار يبيح لهم الشراب غير الموجود.

بالصيام يتساوى الموجود والمفقود، غير أنّ الأذان سيحرّك بداخلهم عنصر الحياة، ولكن: الجرار عطشى، والأرض جدباء، لا سحاب ولا أمطار، الجنود صرعى في ضباب الإغماء، رجاؤهم يحتضر، إنّها مأساة الجنود في الصحراء.

إنّ ما يحدث للجنود، قد حدث للطفل من قبل، إنّها مأساة الإنسان في طلب الحياة "الماء"، يستوي فيها الصغير والكبير، الكبير يتحرّك لإيجاد الماء، والصغير يتحرّك بكاء طالبا الماء وها هي ترسم صورة الطفل العطشان فتقول:

(الطفل إسماعيل يبكي عطشا/ لم يبق في خديه لون وقمر/ وهُدْبُه يسحّ إيقاعَ مطرْ

وغصن جسمه ذوَى وارتعشا/ وانكمش الوجه الوضيّ المقمر

وفي تراب مكّة تبعثر الشعر الجميل الأشقر)[21].

تمزج الشاعرة بين المشهدين وكأنّه مشهد واحد، تتحدّث عن هاجر ثم تنتقل إلى الجنود:

يا هاجر الحزينة اهدأي/ ريانة، هذه الرياح أقبلت تحمل أحلى نبأ

لطفلك الصارخ في دثاره المهترئ / تقطر الرياح حبا في شفاه الطفل إسماعيل

تلمس خديه بعطر نسمة بليل/ وتسكب الحياة والخضرة في كيانه النحيل

وقالت الرياح: إسماعيل/ فردّد البيت العتيق تحت حرّ الشمس: إسماعيل

وانحنت السماء قوسا أزرقا يلثم إسماعيل.../ الله أكبر ضجّ بها المعسكر

يا صائمون انتظروا / إنّ وراء جدبكم جذر حنان سوف يزهر.

وخلف حيرة العطاش كوكب أضاء / ورحمة من ربكم تنحدر[22].

وكما كان الفَرَج لهاجر وابنها في مكّة، كان الفرج للجنود الصائمين في سيناء. المشهد واحد، والله واحد، والإيمان به حياة، إنّها سنّة الله التي لا تتغيّر، يعطي السائلين من عباده ما يريدون، وكما "انحنت السماء قوسا أزرق يلثم إسماعيل" كذلك سيكون خلفَ حيرة العطاش كوكب يضيئ، ورحمة من الله تنحدر.

أين نحن من ذلك التشاؤم الذي جعل الشاعرة تحيا في الظلام؟ أين نحن من ذلك الحزن الذي جعلها تقضي على الأمل، أين نحن من ذلك الإلحاد الذي جعلها تخاف الموت. وإذا كانت حياة الملحد بلا رجاء ولا سعادة، فحياة المؤمن كلّها رجاء وسعادة.

يا صائمون، ربُّكم قد سمع الدعاء... والله في سمائه يقدّر / يدبّر /

يمطر فوق صومكم أنداء.. فيشرب العطشان / من مطر الرحمة والحنان

ويصعد الأذان / وترشف الصحراء من عذوبة الصيام والقرآن[23].

تختم الشاعرة قصيدتها، في جو من الإيمان الذي ملأ قلبها نورا وإشراقا، وكما بدأت بالتكبير مرّتين أنهت خطابها بالتكبير مرّتين، جامعة بين المشهدين في مشهد واحد لأنّهما من صنع الخالق الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

ومن بعيد يرتمي في سمعه نداء / وليس أحلى من صداه، ذلك النداء/ الله أكبر /

الله أكبر / وانبجس الماء النمير حيث عسكروا /

ونام طفل الضوء إسماعيل حول وجهه يضوع عنبر/

وأشرق عالم بالضياء/ سبحان معطي الماء/ مفجر الندى من الصحراء /

ومنبت الزنبق، معطينا نهور الشعر والغناء[24].

إنّه الإيمان الذي يعتقد جازما في المعجزة التي لا يبدعها إلاّ صانع المعجزات، معجزة ماء زمزم في بيت الله، ومعجزة الصهاريج في سيناء، فمن الموت يبعث الله الحياة؛ طائرات صهيون تقصف الجنود في سيناء، راغبة في تفجيرهم، ونشر أشلائهم، ويسمعون محرّكات الطائرات، ويرون القذائف تتهاطل، ولكنّ قذائف الموت، أعطتهم الحياة، إنّه الماء يتفجّر من تحت الرمال، القذائف تفجّر من حيث لا تدري صهاريج الماء التي دفنها جنود إسرائيل من قبل، تلك هي استجابة الله للدعاء، وذاك هو إيمان الشاعرة التي تكبّر مع الجنود، لتقول الله أكبر من كلّ شيء، من الإلحاد والكفر، ومن الجيوش والعتاد.

لم تكن قصيدة "الماء والبارود" قصيدة وحيدة تثبت عودة "الملائكة" إلى الله، فديوان "يغيّر ألوانه البحر" مليء بالروح التفاؤلية التي طبعت روح الشاعرة بعد ما سرت في قلبها شعلة الإيمان التي أنقذتها من براثين الإلحاد الذي أفسد عليها حياتها، وهكذا حوّلها صدقُ الإيمان إلى شاعرة الحبّ والأمل وهو ما أدخلها عالم الطهر والهدى الذي أزاح عن عينيها سواد اليأس والتعاسة.

في دمي شوقٌ لدكّان القرائين الصغيرهْ / وحلمتُ /

وحلمتُ بقرائينَ كثيراتٍ، وأختارُ أنا منها، وأهدي لحبيبي /

في صباح الغد قرآنًا، ويؤويه حبيبي/

صدرَهُ تعويذةً تدرأ عنه الليلَ والسَّعْلاة في أسْفَارِهِ/

تزرع اسم الله في رحلته، تسقيه من أسرارِه[25].

ها هي اليوم-بعد ما ادّعت سابقا أن القرآن كلام بشر-تريد أن تشتري مصحفا صغيرا من "دكّان القرائين" لا لتقرأ فيه، ولكن لتقدّمه هديّة لمحبّ سيسافر عن قريب.

تتحدّث في القصيدة عن السعادة التي غمرتها وهي تسأل عن مثل هذه الدكاكين، ففي دمها شوق لها، ونراها كرّرت الفعل "حلمت" مرّتين مما يدلّ على كثرة الأحلام، وعلى مدى الشوق والارتياح النفسي

التي تشعر بهما، حيث تختار من قرائين كثيرات قرآنا واحدا سيعجبها كثيرا، كما أنّ مدّ الراء في "كثيرات" يوحي بالكثرة المبالغ فيها، والتي تتناسب مع ما تحلم به الشاعرة، فكما هي تريد أن تشتري، فالناس-أيضا-عليهم أن يشتروا، ويحملوا القرائين معهم كتعويذة تدرأ عنهم الليلَ والسَّعْلاة في أسْفَارِهِم، تزرع اسم الله في رحلاتهم، وتسقيهم من أسراره. لم تكتف الشاعرة بالقراءة للقرآن، وقد كانت ترفضه، بل تتبرّك بحمله، وتعتقد أنّ مجرّد حمله، يفيد حامله، وكأنّه حارسه الذي لا يفارقه.

إنّ هذا التحوّل الكلّي للشاعرة، ليس له من سبب سوى الإنابة إلى الله، ولا شكّ أنّ الملحد الذي عاش في ظلمات البعد عن الله، ثمّ يعود إليه، فإنّ روحه ستحلّق بعيدا في سماوات الطمأنينة والصفاء، لأنّه وجد الراحة، والسكينة التي كان يبحث عنهما سابقا ولا يجدهما. ولأنّه وجد حلاوة الإيمان، فتراه يهيم في حبّ الرسول عليه الصلاة والسلام مثل ما فعلت "نازك" في قصيدة "زنابق صوفيّة إلى الرسول" التي قدّمتها بقولها: قصيدة حبّ للرسول الكريم في صيغة معاصرة[26]

وجاءني طائر جميل وحطّ قربي / وامتصّ قلبي / صبّ على لهفتي السكينة /

ورش هدبي/ براءة، رقة، ليونة / وقلتُ يا طائري، يا زبرجد /

من أين أقبلت، أيّ نجم أعطاك لينه؟/

يا نكهة البرتقال، يا عطر ياسمينة / وما اسمك الحلو؟/ قال: أحمد/

وامتلأ الجوّ من أريج الإسراء / طعم القرآنِ / وامتد فوق إغماءة البحر ضوءُ،

من اسم أحمد / وقلت في لهفة أتوسّلُ: أحمد، أحمد... [27]

امتصّ الطائر-أحمد-قلبها، فغمرها بالسكينة، وجدت في اسمه البراءة، والرقّة والليونة، وجدت في لفظ اسمه نكهة البرتقال، المعطّر بالياسمين، إنّ مجرّد التلفظ باسمه "أحمد" يمتلئ الجوّ إيمانا ورهبة، كرهبة ليلة الإسراء التي اكتظّ فيها المسجد الأقصى بالأنبياء يصلّون وراء "أحمد"، تريد الشاعرة بلفظ "أحمد" الذي يتعبّد المؤمن باسمه، المعجزات الخالدة التي إذا ما وصلت قلب المؤمن غمره ضوء الإيمان، كالإسراء والقرآن...

بقدر ما كان البعد عن الله وقت الإلحاد، يكون القرب من الله وقت الإيمان، وقد وجد حلاوة الإيمان من كان محبّا لرسول الله، وها هي الشاعرة تصف ما فعله لها اسم رسول الله:

(أحمد قد لاذ بي، ونمى أهداب لحني / في ولهٍ راعش الحنانِ/

أحمد من ضوئه سقاني/

أحمد كان البخور والشمع في رمضاني/

أحمد كان انبلاج فجرٍ، وكان صوفيّة الأغاني

وأحمد في مروج تسبيحةٍ رماني/ كلا جناحيه بعثراني/ كلا جناحيه لملماني...)[28]

أيّ حبّ زيّنت به الشاعرة قلبها؟ ! إنّها تتلذّذ بذكر اسمه، فهي تملأ فيها باسمه، كأنّها تغذّي نفسها بترديده، فقد كرّرته في القصيدة تسعا وثلاثين مرّة، والشيء إذا تكرّر بهذا الشكل تحوّل إلى رمز، ولعلّه صار رمز خلاص الشاعرة من عذاباتها، بحيث يكون مجرّد ذكر اسمه يعطي نوعا من الأمل في الغد،

ولذلك ظلّت تردّده من دون ملل، لأنّ فيه الراحة النفسيّة التي كانت تبحث عنها. وكأنّها تعوّض بذكر اسمه ما فات من عمرها في ظلام الإلحاد.

ثمّة مشاعر جديدة غمرت الشاعرة، مسحت التشاؤم، واليأس، والخوف، والقلق وغيرها من الهواجس التي دمّرت حياتها سابقا، وها هي تجد الراحة النفسيّة-التي طالما بحثت عنها-في عودتها إلى الله ورسوله، وترسم لوحة الحبّ للرسول عليه الصلاة والسلام من خلال هديّة باقةِ وردِ الياسمين المتمثّلة في قصيدة "زنابق صوفيّة للرسول".

يفهم من الزنابق، العطر المنعش، وجمال الأزهار البيضاء خاصّة، بغضّ النظر عن تعريفه هل هو: (دهن الياسمين)[29] كما نجد في "لسان العرب" أم هو (اسم جنس نباتي يزرع لأزهاره، وتنمو نباتاته من بصلات)[30] كما تعرّفه الويكيبيديا. ثمّ إنّها "صوفيّة"، وفي الزنابق الصوفيّة رهبة القداسة، وجلال الموقف، واقتراب من الفطرة، وحرقة العبادة في أواخر الليل، هو خطاب رقيق للرسول يثبت الانتماء، ويحقّق التبعيّة للحقّ من خلال الألفاظ الشفّافة التي تشيع السكينة والحبّ للمصطفى.

ما يلاحظ في بعض مقاطع القصيدة أنّ جُمَلها اسميّة، مبتدأها " أحمد": (أحمد كانت عيناه بحراً- أحمد قد كان يانعاً تنتمي الدوالي الى جبينه- أحمد قد لاذ بي- أحمد من ضوئه سقاني- أحمد كان البخور- أحمد كان انبلاج فجرٍ- أحمد في مروج تسبيحةٍ رماني. ..) وكأنّها تتلذّذ باسمه إذ تذكره في كلّ جملة مرّتين؛ مرّة بالاسم، ومرّة بالضمير. وهي إذ تقدّمه فتجعله مبتدأ لجملها، من أجل تحرير المعنى المقصود وضبط دلالته المرغوب فيها، تقوم بتخصيصه وتمييزه عن غيره بما نسبته إليه، فلا يشاركه فيها أحد، فأحمد، دون غيره، من كانت عيناه بحرا، وهو، دون واحد آخر، من كان يانعاً تنتمي الدوالي الى جبينه، وهو، أحمد، دون كلّ أحد سواه، من لاذ بها، وهو أيضا، وحده، من سقاها من ضوئه ...أحمد هو الفاعل لكلّ أفعالها، غير أنّها جعلته مبتدأ وفاعلا في الوقت نفسه، لتبيّن به مدى حبّها له، لأنها وجدت حلاوة الإيمان، ولتتلذّذ باسمه العذب الذي تجد راحة نفسيّة تغمرها وهي تنطق به.

إنّ بداية الجمل باسم أحمد، كان من أجل إثبات التغيير الذي أحدثه الإيمان في حياتها، فإذا هي شاعرة أخرى، تختلف عمّا كانت عليه، فحبّ الرسول صيّرها "فراشة الرغو والسحاب" ترى في وجه حبيبها "أحمد" "أكبر من لا نهاية البحر- من مداه يسد اقطاره الزرق- يطوي طيوره- موجه- رؤاه- زنابق- اكوس- مياهُ. وجه حبيبي واللا نهايات في عالم واحد- ليس يشطر ولا يجزّأ" ممّا يثبت قوّة إيمانها به وحبّها له، والسير على خطاه.

يزداد تمكّن الإيمان في قلب "الملائكة"، فإذا هي تشدّ الرحال إلى بيت الله الحرام، وهناك في ذلك الجوّ الربّاني الذي تحرسه الملائكة، حيث تسمو الروح المؤمنة لتحلّق في سماوات الحبّ والإيمان، شدّ انتباهها حمل المسلمين سجّادات الصلاة على أذرعهم وأكتافهم، فنظمت قصيدة "سمفونية السجاجيد" حيث تقول في بدايتها:[31]

(سجاجيدُ، سجاجيدُ، سجاجيدْ / أتتْ تزحفُ من شتَّى العوالمِ ليلةَ العيدْ...

على الأذرعِ والأكتافِ محمولة / بملحِ الدَّمعِ والتوبةِ مغسولة

وتسقطُ فوقها الأهواءُ والنزواتُ مقتولة ...

ذاك هو جوّ الحجّ، تلبية نداء خليل الرحمن، حيث أوبة المذنبين ليغتسلوا بمياه الطهارة ودمع الخطيئة، ما إن تشنّف مسامعهم نداءات المؤذن حتّى ترى الخيوط البشريّة في اتجاه الحرم المكّيّ، وعلى أكتافها

وأذرعها سجاجيد الصلاة، منتهيّة عند الكعبة، مشكّلة دوائر قدسيّة، مترابطة بالتقوى والإيمان، مدبرة الدنيا، مستقبلة الآخرة، طامعة في المغفرة ورفع رصيد الأجر استعدادا لليوم المعهود:

(ويصعدُ صوتُ "حيِّ على الصلاة" من المدَى والليل / يصبُّ خُشوعَه كالسيلْ

وتُفرشُ ألفُ سجّادة / على الأرصفةِ السمراءِ، في الطرقاتْ

وفي المسجدِ، في الأروقةِ البيضاءِ، في الساحاتْ / ويُصْحى الفجرُ أورادَه

يُبعثِرُها، يرشُّ على المصلّين عطورَ الهيل / ويعرفُ قلبيَ المبهورُ في مكّةَ ميلادَه

ومكّةُ، مكةٌ للقلبِ زُوَّاده).[32]

في مكّة، تولد قلوب متخلّصة من القيود، وفيها يتزوّد المرء بالزاد الذي يواجه به العقبة الكؤود. تسمع الآذانُ الأذانَ فتلبّي القلوب باحثة عن الأمان، ولا تنسى الأذرعُ السجّادَ الذي يطير بها إلى السماء، ويولد "للملائكة" قلبها الجديد المليء بالرهبة والرغبة، الطامع في الصفح والعفو والغفران، فيشفّ ويرقّ وهو يقف في الحرم المكّيّ مهبط الوحي ومسرى النبيّ.

في مكّة كان ميلاد قلب جديد للشاعرة، هذا القلب المبهور بقداسة المكان، وقداسة الشعائر الإيمانيّة، في مكّة ينتهي إلى الأبد قلب الظلام والشكّ والإلحاد، وينمو قلب الإيمان، وكأن المكان يشعّ ببركة "روح القدس" وهو ينزل بالقرآن، وإذا مكّة زوّادة القلوب بالإيمان لأنّ الصلاة فيها تضاعف بالآلاف.

(وتسرقني السجاجيد / كما تسرقُ ألوانُ الدُّمَى طفلا عشيَّةَ ليلة العيدْ

وفي دوَّامةِ الألوانِ، في غابِ الأناشيد / أضيعُ سليبةَ الرُّوحِ / إلى اللهِ أمُدّ جبينَ مذبوحِ

وأنزفُ ليلةَ العيدْ / وتغسلُ جرحيَ القاني السجاجيدْ

وتحملني إلى شاطئِ ما قبلَ الجراحِ الحمرِ آلافُ السجاجيد)[33]

هو عالم آخر تعيشه الشاعرة، عالم الاستسلام إلى قوّة الروح واليقين، حيث تغسل السجاجيد روحها، والسجاجيد جواز السفر إلى عالم السمو الروحي، رمز التعالي والتحليق، في عالم الرجاء بعد انكسار النفس، لتتسابق فيها الدموع والأشواق.

وها هي الآن يلامس قلبَها تحرّكاتُ الحجيج في مزدلفة، وهم يجمعون الحصى استعدادا للرجم يوم العيد، تبوح بصدق ودفء عن مشاعرها التي أسرها جلال المكان، الذي زاد من سحره وبهائه ضوء القمر الذي ألقى على الكون جمالا سحريّا أثّر فيها أيّما تأثير، في هذا الليل الساكن، حيث لا ضوء إلا ما يرسله القمر من أشعّة سحريّة تنير الكون، وفي هذا المكان الذي مشى فيه رسول الهدى من قبل، تسمع هنا وهناك وهنالك، أصواتا متداخلة وهي تقرأ القرآن لصلاة المغرب والعشاء، أو تبحث عن الحصى من أجل الرجم، أو ألحان التلبيّة تخرج من أعماق القلوب. كلّ ذلك ترسمه ريشة الشاعرة وهي تحت تأثير رهبة الموقف الجليل الذي صنعه جمال القمر ونوره:

(ينحنونْ/ يجمعون الصَّدَفَ الأبيضَ في شطِّ السكونْ / ويصلِّي فوق واديهم قمرْ

ضوؤه / أشرعةٌ عبْرَ نهرْ / وجْهُهُ رحلةُ صوفيٍّ و أسرارُ عيونْ

قمرٌ يمطِرُ زخَّاتٍ من الرؤيا وأقداحَ صورْ .../ هُدْبُهُ للروحِ رحلةْ / وصلاةٌ وأهِلّةْ)[34]

فَرَض جلالُ الموقف على الشاعرة قاموسا مستوحى من سكون المكان وحرمه، فكان لمشهد الناس- وهم يجمعون جمرات الرجم تحت ضوء القمر- وقع آخر في نفسها، حيث مزجت الواقع بالحلم، فرأت في القمر غير الذي رآه غيرها؛ فإذا هو أيضا يصلي وإذا نوره أشرعة على النهر، وإذا هو يمطر زخّات من الرؤيا، فاستحال قمر "الملائكة" في المشعر الحرام "شط السكون" إلى عابد من نوع آخر، أضفت عليه صفات العبّاد الذين هاموا في حبّ الله.

شتّان بين بداية كانت مظلمة، تخبّطت فيها في وحل الإلحاد، وآلام التشاؤم، وعذابات اليأس، وبين نهاية مبتسمة مشرقة، تحيا بها في صفاء العقيدة، واطمئنان القلب، وسعادة الروح.

إنّ قصيدة " القمر على مزدلفة" غير منشورة في الديوان، ومعلوم أن "الملائكة" حجّت بيت الله سنة 1974، وتاريخ طبع دار العودة لديون "نازك الملائكة" كان سنة 1997، ويشمل المجلّد الأول: مأساة الحياة، أغنية للإنسان 1، أغنية للإنسان 2، عاشقة الليل، الفيضان، من الشعر المترجم. أمّا المجلّد الثاني، فيشمل: شظايا ورماد، قرارة الموجة، شجرة القمر. كما أنّ آفاق الكتابة تنشر ديوانها: يغيّر ألوانه البحر سنة 1998. من دون أن تشير إلى قصائدها التي نظمتها من وحي الأماكن المقدّسة في الحج. وقد تكون هذه القصائد قد نظمتها بعد حجّها سنة 1974، وها هو الشاعر أحمد الوائلي يهنّئها ويسألها عن أسرا ر الحج التي لا يفهمها إلّا العارفون بالله فيقول:[35]

يا أُم بـــــــــــراقٍ عليك السلامْ   دام لكِ الايمان والالتزامْ

السعــي مشكور لوادي منى   والحج مبرور لبيتٍ حرام

هل ذقتِ صهباءَ حسى صفوها الـ   فارض والخيَّام وابن الهمام

غابوا بما ذاقوه من نشوةٍ   فيها فهم للآن صرعى نيام

ولامست أوتارهم فالتفت   أرواحهم بألف عودٍ وجام

للشاعرة – الملحدة سابقا – إيمان والتزام، ولأنّها شاعرة، يجب أن يكون حجّها مختلفا عن حجّ العامّة من الناس، يريد لها أن تذوق الحكمة منه، وأن تحياه بقلبها مثل ما فعل من قبل ابن الفارض، وعمر الخيام، وابن الهمام، وهؤلاء كلّهم من رجال الصوفيّة الذين كان لهم باع في المعرفة القلبية، والتبصّر.

وقد أجابته بقصيدة ملآى بالإيمان، فقالت:[36]

هنّأتني بالحجّ، حجّي رؤىً   روحيّة ونجمة في ظلام

والله في قلبــــــي تعريشة   والله نبع مغدق وابتسام

إنّي لمست في منى دفقةً   من مطر الله ترشُّ الخيام

أحسست وجه الله إغماءةً   أغيب فيها ويغيب الزحام

فلا أعي إلا ذرى قمة   مذاقها سعي شذاها استلام

صلّيت ناجيتُ سرتْ رعشة   في أدمعي في شفتي في العظام

تؤكّد أنّ حجّها رؤى روحيّة، لأنّ الله-الذي هو في قلبها نبع عميق-يظلّلها ويحميها، وقد رأت في "منى" بقلبها ما لم تره العيون فأحسّت برحمات الله تنهمر على المسلمين المتزاحمين وهم يرمون الجمرات،

ابتعدت بقلبها وغاصت بعواطفها وهي تقيم هذه الشعيرة، فغابت عن واقع الناس وتشبّثت بجلال الموقف حتى غاب عنها الزحام، فما عادت تشعر به، بل ما عادت تعي بشيء إلا أنّها تسمو بروحها، وتعلو بصفائها، فإذا هي تشعر بالسكينة والاستسلام إلى نداء الله الذي تطمئن له القلوب.

ومما جاء في قصيدة " القمر على مزدلفة" قولها[37]

ضحكتْ مزدلفةٌ / ورؤاها أومضَتْ لؤلؤةً في صدفَه /

وحملْنا كنزنا الغالي صخوراً وأهِلّهْ

جدَّدتْ عمرَ السنينَ المضمحلةْ / يا صخوراً طَعْمُها طعمُ الكرومِ المتْرَفةْ/

ترجمُ الشيطانَ شيطانَ المذلّةْ/ تقذِفُ الإلحادَ / والفقرَ/ وصِهْيونَ، سترمي /

كلَّ تشريدٍ وظلمٍ

كلَّ أكداسِ الخرافاتِ المُمِلّةْ / كلَّ زيفٍ / كلَّ تعريشةِ وهمٍ

تقذفُ الغفلةَ واليأسَ، وتُذْكي الجرحَ شعلةْ / وتحيلُ الموتَ قبلةْ .

مرّة أخرى، هو الإيمان يرفع صاحبه من حضيض البعد عن الله إلى قمّة السموّ وصفاء القرب منه، وها هي ترسم لوحة مزدلفة، المشعر الحرام، المكان الذي تجمع فيه اللآلئ الصدفيّة، هذه الكنوز الغاليّة، التي تجدّد عمر السنوات المتعاقبة. صحيح أنّها أحجار، ولكنّها أحجار كريمة، المؤمنون بها سكارى بحبّ الله ورسوله، نشوى بعبادتهم، التي يقذفون بها الشيطان ومن هم في دائرته. ويبقى ماضيها يحزّ في نفسها فتتذكّر سنوات الإلحاد لتكون إبرا تؤلم روحها؛ نجد ذلك في قولها "عمرَ السنينَ المضمحلةْ". فهي ترى عملها الماضي مضمحلا هزيلا لا قيمة له وترجو الله أن يبدلها حياة مليئة بالإيمان.

تتعدّد معاني المقذوف عند الشاعرة، فإذا كان الظاهر للمسلمين، أنّهم يرجمون الشيطان، فإنّ المرجوم-عندها-الشيطان ومن على شاكلة الشيطان، لأنّ الرجم عندها موقف من الآخر/ العدوّ، وما الأحجار التي تَرْجم إلاّ رمز للترفّع والتخلّص من هذا الذي يتربّص بالمسلم الدوائر، ولذلك يتعدّد مدلوله؛ فإذا المرجوم: المذلّة، وإذا هو الفكر الإلحاديّ الذي عانت منه طويلا ويعاني منه كثير غيرها، وإذا هو الفقر، وإذا هي الصهيونيّة التي تحرم المسلمين حقوقهم في فلسطين، وإذا هو كلّ تشرّد وظلم، وكلّ خرافة وزيف وكلّ ضلال ووهم، هو قذف للغفلة واليأس، وفي الوقت ذاته، إشعال للنار الخامدة في قلوب المسلمين، ليصير الموت قِبلة يتّجه نحوها الملايين، لأنّها لقاء الله والجنّة المأمولة، أو قُبلة يتمناها الجميع.

تلك هي رحلة الشاعرة التي رسمت مأساة حياتها. حاصرها الإلحاد وهي في ريعان شبابها، غضّة طريّة، لا تعرف من الحياة الكثير، ثائرة متمرّدة على ثقافتها، فتشرّبت مع فيلسوف ألمانيا الألم والتعاسة، فلم تجد في حياتها إلا القلق والخوف من الغد، فأمْسَت في الماضِي تعيشُ كأنَّما قَطَعَ الزمانُ طريقَ أمْسِها عنْ غدها[38](38) وسرعان ما انتبهت، فوجدت أنّ ما تعيشه من قلق نفسيّ وجعلها تخشى الموت هو بُعْدُها عن حضرة الله، هو هذه الرؤى الإلحاديّة التي تزيّن للإنسان انقطاعه عن الحقّ. وشاءت الأقدار أن قُذِفَ في قلبها شعلة من نور الإيمان فسرت الشعلة في أعماقها فحوّلتها جسدا شفّافا، وروحا عبقة، حلّقت بها في عوالم الطمأنينة، وسمت بها في أبراج السكينة، فامتلأت إيمانا وحبّا وأملا، فكانت قصائد الحياة الثانيّة- وقد فاضت فيها دموع العشق- تتقاطر حديثا علويّ النداء من شهد الإيمان، وها هي الآن

تدْعُو جَهاراً بكلّ صدق وشفافيّة (لَاَ إلهَ سِوى الذي صَنَعَ الوُجُوْدَ وَقَدَّرَ الأَقْدَارَ)[39] ، فسقط الإلحاد وكفّنته ذات مساء، وتحصّنت بدعوى التوحيد فكان الإيمان ومعه النور يضيئ عوالمها.

قائمة المصادر والمراجع

✓ أوّلا: الكتب:

القرآن الكريم برواية ورش

01. ابن منظور (1414 هـ) لسان العرب. ج10. بيروت – دار صادر. ط3.

02. محمد إقبال.(2007) ديوان محمد إقبال.ج1. إعداد: سيد عبد الماجد الغَوري. دمشق – بيروت – دار ابن كثير. قصيدة جواب الشكوى: تر: صاوي شعلان المصري

03. نازك الملائكة. (1997) ديوان نازك الملائكة. مجلّدان الأول و الثاني. بيروت: دار العودة.

04. نزك الملائكة. (1998) يغيّر ألوانه البحر. القاهرة – الهيئة العامّة لقصور الثقافة.

✓ ثانيا: الدوريّات:

01 الحوار المتمدّن 2013/10/30.

✓ ثالثا: المواقع:

1 موقع الأوان alawan.org/author/416

2 موقع البلاغ balagh.com

3 موقع philadelphia.edu.jo :

4 موقع د/ أبو مشعل الحميدي

5 موقع ديوان العربdiwanalarab.com .

6 موقع albahethoun.blogspot.com/2010

7 الويكيبيديا

[1] . هاشم صالح، في صحبة الفلاسفة: هيغل وشوبنهاور. موقع: albahethoun.blogspot.com/2010. وانظر موقع الأوان بتاريخ 2013/12/08.

[2] نازك الملائكة، ديوان نازك الملائكة. المجلّد الثاني. بيروت: دار العودة. ص51

[3] مصطفى الجلابنة. الحب والكره في الأديان السماويّة. ورقة بحثية. ص8. موقع:philadelphia.edu.jo

[4] المرجع نفسه، ص 8

[5] نازك الملائكة. ديوان نازك الملائكة. مرجع سابق. ص 52

[6] محمد إقبال. ديوان محمد إقبال.ج1. إعداد: سيد عبد الماجد الغَوري. دمشق – بيروت – دار ابن كثير. قصيدة جواب الشكوى: تر: صاوي شعلان المصري. ص 103

[7] المرجع نفسه، ص 103

[8] نازك الملائكة، ديوان نازك الملائكة. المجلّد الأوّل. بيروت: دار العودة. ص 6. وانظر: خلدون جاويد. نازك الملائكة تقارع الموت والحرب والشرور. الحوار المتمدّن. العدد 1625. بتاريخ: 2006/07/28

[9] سورة البقرة الآية 199 (مصحف ورش)

[10] نازك الملائكة. ديوان نازك الملائكة. م 2، ص 50
[11] ديوان نازك الملائكة، م2 .ص55
[12] ديوان نازك الملائكة، م2. ص 114
[13] ديوان نازك الملائكة، م1. ص 236
[14] ديوان نازك الملائكة، م1. ص239
[15] نازك الملائكة. يغيّر ألوانه البحر. القاهرة – الهيئة العامّة لقصور الثقافة. ص 35/34
[16] يغيّر ألوانه البحر. ص 45
[17] ناك الملائكة. يغيّر ألوانه البحر، مرجع سابق، ص 50
[18] يغيّر ألوانه البحر. مرجع سابق. ص 48
[19] سورة الأنفال الآية 09
[20] نازك الملائكة. يغيّر ألوانه البحر. ص52
[21] م ن، ص 53/52
[22] نازك الملائكة. يغيّر ألوانه البحر. ص 56/55
[23] يغيّر ألوانه البحر. [الأبيات غير متسلسلة مباشرة] هي ما بين ص 56 – 61
[24] يغيّر ألوانه البحر. ص 70
[25] يغيّر ألوانه البحر. ص 100
[26] يغيّر ألوانه البحر. ص 73
[27] يغيّر ألوانه البحر. ص 78/77
[28] يغيّر ألوانه البحر. ص 80/79
[29] ابن منظور، لسان العرب. ج10. بيروت – دار صادر. ط3. ص 137
[30] انظر الويكيبيديا. مادة: زنبق. أو: موقع د/ أبو مشعل الحميدي
[31] أحمد فضل شبلول. سيمفونية الألوان في سجاجيد الملائكة. موقع: middle-east-online.com. بتاريخ: 2007/07/05.
[32] أحمد فضل شبلول. سيمفونية الألوان في سجاجيد الملائكة. مرجع سابق
[33] المرجع نفسه
[34] محمد محمود أسد: صور ومشاهد من الحج. موقع ديوان العرب.diwanalarab.com وانظر موقع البلاغ بتاريخ 2013/09/09
[35] أحمد أحمد المندلاوي، لطائف من الأشعار المتبادلة بين شعراء النجف/3. الحوار المتمدّن 2013/10/30
[36] أحمد أحمد المندلاوي، لطائف من الأشعار المتبادلة بين شعراء النجف/3. مرجع سابق.
[37] محمد محمود أسد: صور ومشاهد من الحج. موقع ديوان العرب. diwanalarab.com
[38] العبارة مأخوذة من بيت محمد إقبال. قصيدة "الشكوى وجواب الشكوى" المعروفة في البلاد العربية بحديث الروح. حيث يقول: أمسيت في الماضي أعيش كأنّما قطع الزمان طريق أمسي عن غدي. ديوان محمد إقبال. ج1 (مرجع سابق). ص 93
[39] ديوان محمد إقبال. ج1 (مرجع سابق). ص 95